# 4

# كونك مسلمة حديثاً - المشكلات والتحدّيات

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: 2].

غالباً ما يكون اعتناق الإسلام تجربة إيجابية، منعشة وحتى مبهجة. كما أظهرت الفصول الماضية، تشعرين بأنكِ شخص جديد فهم للتو «مغزى الأمر كله». هناك الكثير مما يمكن تعلّمه، إذا كنت مثل كثيرين ممن اختبروا الإسلام حديثاً، وتمتلئين شغفاً لمعرفة المزيد والمزيد عن الدين، والإيمان الذي اعتنقته. ويأتي مع هذه المعرفة الجديدة طريقة جديدة في الحياة: صديقات جديدات، ملابس جديدة، أنواع جديدة من التسلية، طموحات جديدة ونظرة جديدة على الحياة. يجد بعضهم هذا الانتقال سلساً تماماً. على أي حال، اعتناق الإسلام بالنسبة لمعظم النساء يتضمن أيضاً مواجهة العديد من التحدّيات. الأمر شبيه بانقلاب عالمك رأساً إلى عقب، وهو كذلك بطريقة ما. لا تعود الأمور كما كانت في السابق، وهناك مجموعة جديدة من القيم، الأولويات، الولاءات التي قد يكون التأقلم معها مؤلماً.

## قيم العائلة

غالباً ما تكون أكثر الأشياء صعوبة في التعامل معها بوصفك مسلمة حديثاً هي رد فعل العائلة. نادراً ما يكون إيجابياً. مرة، في المرحلة التي

وضعت فيها غطاء الرأس، تكلمت إلى عمّتي حول التغييرات التي أدخلتها على أسلوب حياتي. بحلول ذلك الوقت لم أكن أتناول حينها لحم الخنزير، لم أكن أشرب الكحول أو أخرج إلى النوادي. كنت قد تعودت أيضاً على الصلاة، بطريقتي الخاصة، في غرفة المعيشة المظلمة في الطابق السادس عشر من شقتنا الواقعة في برج سكني كبير. وجدت أن من الضروري التواصل مع الرب (الذي كنت أعتقد أنه الكائن الأسمى) بانتظام، فيما كنت أستكشف جانبي الروحي، جانبي الذي كان، حتى تلك اللحظة، غير مكتمل بتاتاً. بالنسبة لي، كان كافياً أنني بدأت «تنظيف» حياتي. لم أكن أنوي أبداً الالتزام تماماً بأي معتقد، ليس حتى بالإسلام. برغم أن نمط الحياة الذي يعيشه المسلمون كان مقنعاً بالنسبة لي في ذلك الوقت بتشديده على الانضباط الذاتي وإغلاق أبواب الإغواء، إلا أنني لم أفكر في الواقع باعتناق الإسلام رسمياً. كان لدى عمتي تحفّظاتها وكانت متشككة تماماً، لكنها كانت تصغي باهتمام. لكن عندما سمع والدي الإشاعة ضمن العائلة بأنني أصبح أكثر اهتماماً بالإسلام، اتصل بي من الخارج وأستطيع القول: إنه كان منزعجاً. ألقيت اللوم على نفسي؛ لأنني ذكرت أي شيء لأي شخص في عائلتي كان ينبغي أن أعرف أن الأنباء ستعرف طريقها إليه، وإن كان بشكل مختلف عبر جدّتي.

لم يضع والدي أي وقت في السؤال عمّا يجري: «ما هذا الذي سمعته عن اعتناقك الإسلام؟». ضحكت حينها فحسب، وأكّدت له أنني لا أريد في الواقع أن أصبح مسلمة، وأنني «أقوم ببعض الأشياء الإسلامية». وكنت أقول الحقيقة. لم أكن أريد أن أصبح مسلمة، برغم أنه كان عليّ الاعتراف بأنها تبدو طريقة «جيدة» جداً وآمنة للعيش. لم يكن والدي يراها على

ذلك النحو. بوصفه ملحداً يقرّ بذلك بنفسه، أعتقد أنه كان يأمل بأني سأتجنّب التورط في أي معتقد ديني. في الواقع، قال: إنه يعتقد أنه عمل على تربيتي بشكل أفضل من ذلك، وأنني أصبحت شابة مستقلة، حرة ومفعمة بالحيوية، لكنني أعمل على إذلال روحي بالخضوع لإله متخيل. لغاية يومنا هذا، أعتقد أنني سمعت دموعاً في صوته وما زال يحزنني التفكير في ألمه.

قلت في محاولة لطمأنته: «أبي، ليس الأمر أنني أصبحت من «شهود يهوه» أو شيئاً من هذا القبيل!». غني عن القول إن ذلك لم يطمئنه على الإطلاق. بالنسبة له، لا بد أن تلك كانت مثل صفعة على الوجه: كنت أدير ظهري لمستقبل لامع وكل الآمال التي كان يضعها على عاتقي، وأرفض كل ما هو عزيز عليه ولا بد أن ذلك آلمه، تماماً كما آلمني أن أخيب أمله.

لم يكن رد فعل والدي غير اعتيادي بكل المعايير.

شاطرت ياسمين تجربتها معي.

«في البداية، اعتقدت عائلتي أن تلك مجرد دعابة كبيرة. آه، إنها مجرد مرحلة تمر بها، وستكون شيئاً مختلفاً في الأسبوع القادم». ثم كانت: «كيف تجرأت على تغيير دينك؟». ثم كانت التعليقات الماكرة حول التحول إلى امرأة رثة المظهر والثياب، وأن الرب ينظر إلى القلب وليس إلى الملابس. لم أكن أرتدي العباءة [القماش الفضفاض الشبيه بالفستان الذي يتم ارتداؤه فوق الملابس اليومية]. لكني كنت قد بدأت أرتدي ملابس مريحة حقاً، ملابس فضفاضة ... أتذكر شقيقي - الذي أصبح مسلماً أيضاً -

يقول لي: «أمي تقول إنها لا تريد المزيد من المسلمين في المنزل»، لهذا قلت: «حسناً، سأنتقل منه». لقد كنت في التاسعة عشرة».

«قبل اعتناق الدين، كانت حياتي قد بدأت تتغير على أي حال. كنت قد توقفت عن التدخين، توقفت عن الشرب، توقفت عن فاحش القول، توقفت عن كل تلك الأنواع من الأشياء. لهذا كانت حياتي تتخذ مسارةً مختلفاً، ولم أدرك أي مسار تأخذ حتى جاءني الإسلام وفكّرت: «هذا ما كان الله يعدّه لي» عزيزة.

في حالتي، بدا أن تحوّلي حدث فجأة دون سابق إنذار. لم يكن أسلوب حياتي الجامعية يسمح لي بإجراء اتصالات منتظمة مع عائلتي بسبب مزيج من قضايا المال والوقت ـ العيش بوصفي طالباً وراء البحار في لندن لا يمنحك الكثير من الحرية في ذلك المجال. نتيجة لذلك، لم يكن أفراد عائلتي مطّلعين أبداً على المقاربات الفكرية أو التجارب التي قادتني لاختيار الإسلام بوصفه أسلوب حياة ـ لم يشاهدوا أبداً التغيير التدريجي، ليس مدهشاً، ربما، في عائلة تضم يهوداً (خالتي وعائلتها)، نصارى (أسلافي الأسكتلنديين)، أتباع ديانة إفريقية تقليدية (عائلتي من الزولو) وملحدين (والدي) ألا يكون الدين المادة المفضلة للحديث. وهكذا، لم يسألني أحد مطلقاً لماذا قرّرت أن أغيّر حياتي؟ وعمّا أؤمن به آنذاك، وعمّا إن كنت سعيدة. لم يخضع الموضوع للنقاش أبداً. بالطبع، كانت هناك «قضايا» تخضع للنقاش ـ دور النساء في الإسلام، الحجاب، أفغانستان، فلسطين ـ لكن ليس الأشياء التي كانت تشكل حافزاً لي، المعتقدات التي كنت قد أعتنقتها. ربما كانت تلك هي الطريقة الوحيدة لتتأقلم عائلتي مع هذه المسلمة التي كانت مختلفة جداً عن الفتاة التي

كانـوا يعرفونها. وحتى مع ذلك، اسـتطاعوا بمحبتهـم وقبولهم لي تجاوز صدمتهم وهواجسهم الأولى، وغالباً ما كنت أشعر وقت اعتناقي للإسلام أنني معزولة جداً ولا أحد يفهمني.

تحطم فؤاد والد مي عندما أخبرته أخيراً أنها أصبحت مسلمة.

قالت لي: «لم أقل لوالديّ إنني أصـبحت مسلمة إلا بعد سنة من نطقي الشـهادة. برغم أننـي لم أكن أرتدي الحجاب، إلا أننـي عندما عدت إلى المنـزل من الجامعة، عرف والداي أنني مختلفة عمّا اعتادا عليه. سـألني والدي يوماً ما: «هل أنتِ سعيدة؟ ما خطبك؟ لماذا أنتِ حزينة جداً؟».

قلت: «لا شيء، لست حزينة. أنا بخير».

وقال: «لا، قولي لي. لديك شيء تخبرينني إياه، لقد تغير شيء ما».

وهكذا قلت: «أنا مسـلمة». وانتابته نوبة غضب عارم. لقد تألم وانزعج كثيراً - لم يسـتطع تصـديقي. لكني شـعرت براحة كبـيرة. لم أكن أحب الكذب على والديّ - كان ذلك يجعلني أشـعر بالسـوء. لكني كنت سـعيدة آنـذاك. فكّرت، لقد أخبرتهما الآن، وانتهـى الأمر. كنت أعرف أنه ينبغي القيـام بما ينبغـي القيام به. كنت أعرف أنني إذا لم أنطق الشـهادة، ولم أصـبح مسـلمة، فسـيكون الأمر أسـوأ. كان الأمر لله الأولوية على والديّ. حاولت تغيير ذلك لكني لم أسـتطع. كان الرب في قلبي منذ كنت صـغيرة إذا تم انتزاع ذلك مني، فإن ذلك يعني انتزاع حياتي مني».

أردت أن أعرف كيف استطاعت العيش في المنزل بعد ذلك.

«كان هناك اضطراب في ذلك المنزل، كان الأمر كابوساً. كانا يعرفان أنني أصلي حينها، وكان والدي يجعل الصلاة أمراً صعباً جداً. كنت أحتفظ بحجابي في حقيبتي، وقد وجده والدي ورماه في سلة المهملات، ورمى بها بعيداً».

وخلال ذلك الوقت، عرض والداها بيع ممتلكاتهما والانتقال بعيداً إلى حيث لا يعرفهم أحد؛ حتى تستطيع التخلي عن الإسلام دون أن تفقد ماء وجهها. عرضا عليها المال، الحب، وكل ما أرادته، «لكني لم ألمسه؛ لأنني كنت أعرف أنه رشوة. لم أكن أستطيع الصلاة، لم أكن أستطيع ممارسة شعائر الإسلام، شعرت بأنني في حالة يرثى لها ولم أكن سعيدة، كان الأمر بأكمله غير مريح إطلاقاً.

«في النهاية، أصبح الوضع سيئاً للغاية، وقلت لأمي: إنني سأغادر المنزل. وقد وافقت. كنت قد حزمت حقائبي واصطحبني شقيقي إلى المحطة، وكان ذلك ما حدث: لقد غادرت. كان يوماً حزيناً جداً. لكن قبل أن أغادر، قال لي والدي: «هل تعتقدين أنكِ إذا أنجبت أطفالاً فإننا سنقبل بك؟ لا، لن أقبل بكِ، حتى مع الأطفال، ولن أنسى ذلك أبداً».

كانت ردة فعل والدتي وشقيقتي مختلفة عن والدي. عندما جاءت شقيقتي الصغرى لرؤيتي لدى عقد زواجي المدني، كانت مندهشة تماماً من التغيير الذي طرأ عليّ، وخاصةً على مظهري. أين كان الحاجبان المنتوفان، التبرّج الكامل، تسريحة الشعر الأنيقة والملابس الضيقة التي تعرفها؟ نظرت إلى الأسفل على قدميّ وهزّت رأسها. كنت أرتدي خفّين لا يظهران سوى أصابع القدمين مع جوارب، جوارب بيضاء.

«قالـت: «آيش»، وهـي كلمــة زيمبابوية تدل على عدم التصـديق، «لقد حطّمت كل القواعد الآن».

لكنها لم تنتقدني. طرحت أسئلة حول كل شيء، وكنت سعيدة لإجابتها، وآمل، كما يفعل كل معتنقي الإسلام، بأن ترى جمال الإسلام وصدقه وتفكّر في اعتناقه أيضـاً. أعتقد أن أحد أصعب الأشياء التي ينبغي على المسلمين حديثـاً تحمّلها هـو اللامبالاة، الازدراء أو حتى كراهيــة عائلاتهم للدين. أصبح المنزل ساحة معركة يمكن أن يتعرض فيه الولاء لاختبار قاسٍ.

أعتقد أن والدتي كانت، أكثر من أي شخص آخر، سعيدة؛ لأنني «وجدت الرب». بعد عودتها إلى الكنيســة بنفسـها، أعتقد أنها كانت مرتاحة؛ لأنه برغـم نشـأتنا في بيئة إلحاديــة، إلا أنني تعرّفت على مـولاي وكنت أعيش حياتي لأعبده. كانت تفهم، أكثر من أي فرد آخر في العائلة، البعد الروحي لاعتناقي الإسلام.

لكن لا تسـلم حتى النســاء من خلفيات إســلامية من ضـغوط العائلة. لم يكـن جيلي مــن الأخوات اللواتي عُدن إلى دين ولادتهن يردن ممارســة الإســلام وفقاً للتقاليد، والثقافة أو توقعات المجتمع، وإنما أردن الإســلام النقي، الإســلام الحقيقي، إســلاماً خالياً من التأثيرات الثقافية والبدع. كنت أتفاجأ دائماً، بوصــفي شخصــاً نشــأ على احـترام ثقافته الإفريقية كثيراً، عندما أجد آسيويات مسلمات، باكستانيات وبنغاليات، يسخرن من ثقافتهــن. لكني فهمت لاحقاً أنه عندما يتم، غالبــاً، خلط الثقافة بالدين وتغليفهــا بالحماســة الدينية فإن ذلك يقود إلى مثل تلـك البدع مثل زواج

الإكراه، قتل الشـرف وختان البنات التي تُنسب كلها على غير وجه حقاً، غالباً، إن لم يكن دائماً، إلى الإسلام.

عندما كنت في الثانية عشرة، كان هناك الكثير من الصعاب؛ لأنه لم يكن يوجد، في ذلك الوقت، الكثير من المسلمين الملتزمين. لهذا [عندما بدأنا نلتزم الإسلام النقي] أثرنا بشكل أساسي استغراب المجتمع، والعائلة، والأقرباء والأصدقاء، الجميع فيما يخص الدين. بالنسبة لهم، كان ذلك ديناً جديداً اكتشفناه» بيغوم.

بالفعل، في العديد من المجتمعات، لا يكون الحد الفاصل بين الثقافة التقليدية والإسلام واضحاً أبداً. يؤدي ذلك إلى نشوء قواعد ثقافية غالباً ما تكون لصالح جنس، طبقة اجتماعية أو مجموعة اقتصادية واحدة، والتي يتم الحفاظ عليها وتعزيزها على حساب المبادئ الإسلامية الحقيقية عادة. لن أنسى أبداً الدعوة التي تم توجيهها لي لتحضير حنّة العرس لشابة بنغالية شمال لندن. في الثقافة البنغالية، ليلة ميهندي (الحنّة) مناسبة كبيرة لكل العائلة، ذكوراً وإناثاً، الذين يجتمعون لتناول الطعام، والمشاركة في النشاط الاجتماعي وتحية العروس. وضع الحنّة نفسها جزء ثانوي للغاية من الأمر كله، كما اكتشفت لاحقاً! كانت العروس متوترة للغاية، تضحك أحياناً بشكل مبالغ فيه مع شقيقاتها وصديقاتها، وتحزن وتتجهم أو تكاد تذرف الدموع في أحيان أخرى. فعلنا أفضل ما بوسعنا لتهدئة أعصابها فيما كانت تحاول جعل ثوب الساري الأحمر المتقن الصنع يستر بطنها؛ لأن «أمي ستثير مشكلة». تخيلوا رعبي عندما اكتشفت أنها مخطوبة لابن أفضل أصدقاء والدها الراحل، وهو شاب لا تعرفه ولا ترغب الزواج منه. لم أستطع أن أتخيل ما ستكون عليه الحال

في ليلة زفافها، وحيدة مع رجل لا تريده، وقد لا تميل إليه، وتتوق ربما إلى شخص تحبه لكنها لا تستطيع الزواج منه. لم تكن حقيقة أن زواجها مدبّر بتلك الطريقة هي ما أزعجني. مثل معظم أخواتي، كان زواجي «مدبّراً» (المزيد عن ذلك لاحقاً). لكن ما أزعجني كان حقيقة أنه تم تجريد هذه الشابة من كل الحقوق التي تتمتع بها بموجب الإسلام وإخضاعها لمطالب الثقافة البنغالية: حق رؤية ولقاء طالب يدها، رفضه إذا لم يرق لها عاطفياً وجسدياً وحق قبوله أو رفضه دونما سبب على الإطلاق ... كاد ذلك يحطم قلبي. لكن ماذا كنت أتوقع؟ برغم أنها ولدت ونشأت مثل المسلمين، إلا أن عائلتها لم تكن تلتزم حقاً بتعاليم الإيمان، ولم تستطع سوى إبداء الإعجاب بالطريقة التي نتعامل بها ومساعدتي اليافعة في تحضير الحنّة، شادية، مع بعضنا بود واحترام، وكيف نتبادل دائماً تحية السلام (السلام عليكم)، وكيف نذكر دائماً لفظ الجلالة الله، والطريقة التي نستر بها أنفسنا وأخلاقنا بشكل عام.

بلورت تلك الأمسية، التي انتهت باستدعاء الشرطة للتعامل مع مشكلة تسبب بها شقيق «أصغر» كان يسيء معاملة والدته وشقيقته، رفضي للتعامل مع الثقافة التقليدية على أنها شيء لا يمكن انتهاكه. لسوء الحظ، حتى في الغرب، الحقيقة المرّة أن أولئك الذين يرفضون مثل تلك المعتقدات الثقافية أو يدعون إلى تعديلها وتغييرها ـ في حالات متطرفة ـ يدفعون حياتهم ثمناً لذلك.

## أسلوب حياة مختلف

اعتناق الإسلام في مرحلة الشباب يعني غالباً أن تصبحي منبوذة اجتماعياً، خاصةً إذا كنت تحاولين فعلاً العيش وفقاً لقانون الإسلام،

الشـريعة. إنـه يعنـي أن «تتأهبـي للغاية» عندما تسـتعد صـديقاتك غير المسـلمات للذهاب إلى حفلة، حانة أو نادي. ويشكّل حتى المكان الذي يبدو هادئـاً مثل المطعم تحدّيات لا يمكـن تذليلها تقريباً. هل سـيكون الرجال والنسـاء معاً هناك؟ هل يقدمون الكحول؟ هل سـيكون اللحم حلالاً؟ هل ستكون الموسيقى صـادحة، وهل سيرغب الجميع في الرقص؟ هل سأشعر بالغرابـة؛ لأننـي أرتدي الحجاب؟ هل سـأعرض دينـي للخطر؟ هذه هي الأسئلة التي تسيطر على أي مناسبة اجتماعية، خصوصاً في حضور عائلة وأصدقاء غير مسلمين.

أتذكـر مـرة أنني رافقـت زميلتي في السـكن عفوة إلى منـزل أقاربها للاحتفاء بمولودها الجديد، وأنني شـعرت بالإحراج والانزعاج. كان ذلك بعد الظهر وقت صـلاة العصـر. وجدت لنفسـي زاوية صغيرة في الجانب الآخـر من المنزل المكتظ بالناس لمد سـجادتي والصـلاة. لكن، فيما كنت أهم بالركوع، شعرت بجسد يمر بجانبي وتسمّرت في مكاني. انتابني القلق من وجود شـخص يقف على الدرج خلفي واحمرّ وجهي خجلاً. لم أسـتطع التركيز على صلاتي بعد ذلك. اكتشفت أيضاً أن الجميع ينظرون إلي كما لو أنني جئت للتو من كوكب آخر؛ لأنني كنت أرتدي الحجاب. كنت الغريبة بينهم، التي لم تنسجم مع الباقين والتي كانت مختلفة.

«لاحظـت أن الناس كانوا يبتعدون عني؛ لأنني لم أكن أتكلم مثلهم، ولم أكـن أهتم بما يفعلونه، لأننـي لم أكن مثلهم. لأنني كنت أحاول الالتزام بالدين، وكنت مملة بالنسبة لهم» صادقة.

في النهايـة، أصـبح الخروج مع صـديقاتي غير المسـلمات أمـراً نادر الحـدوث وبدأت أقضـي المزيد والمزيد من الوقت في «مطبخ سـاندرا»، مع

مسلمات كن، مثلي، إما قد اعتنقن الإيمان أو «عُدن» إليه. أثار ذلك، بحد ذاته، نزاعات خاصة؛ لأن صديقاتي القديمات اعتقدن أنني كنت أتغير، وأبتعد عنهن. لكن ماذا عساي أفعل؟ كنت أريد الانغماس في هذا الإيمان الجديد الذي كان ينكشف أمام ناظري. كان هناك الكثير من الموضوعات التي ينبغي مناقشتها، الأسئلة التي ينبغي طرحها، الكثير من المواقف التي ينبغي إعادة النظر فيها وكنت مشغولة للغاية بكل ذلك.

عندما اعتنقت الدين، لم تكن ممارسة شعائره قراراً واعياً. كان الأمر كما لو أنني استيقظت يوماً ما وقد تغير قلبي، لم أكن أبحث عن أي شيء، لكن الله كان قد اختار أن يهديني. ولأن الأمر حدث بسرعة كبيرة، كنت وحيدة تماماً؛ لأنه كان عليّ الانقطاع عن الجميع. كانت عائلتي قد تخلت عني، عاطفياً ومادياً، وكانت كل صديقاتي غير مسلمات. شعرت كما لو أنني ولدت من جديد، لكن كان عليّ البدء بكل شيء من العدم: إيجاد مجتمع جديد، العثور على صديقات جديدات، ملابس جديدة ... وكنت وحيدة للغاية. لم يكن لدي أحد، لم يكن لدي شيء، وما كان يجعلني أتماسك هو الله، لا شيء سواه» غانية.

كان على سارة الاختيار بين الالتزام بتعاليم دينها والمشاركة في مسابقات كرة السلة، وهو النشاط الذي كانت تحبه حباً جماً.

قالت لي: «كانت الرياضة أحد الأشياء التي لم أكن أتخيل التخلي عنها. لقد مارست كرة السلة منذ كنت في الرابعة عشرة ولطالما كانت جزءاً كبيراً من حياتي فهي تجعل لياقتي عالية وتريحني من التوترات.

لقد أحببت الجانب الاجتماعي فيها أيضاً. لم أكن أتخيل محو ذلك الجزء من حياتي. لكن، الحمد لله، تلاشى ذلك الشغف، وحل مكانه بطريقة ما الشغف بالمشي في المنتزهات، والحقول وأي مكان.

«وفيما كنت أصبح روحياً أكثر إدراكاً، بدأت أقدّر كل شيء: المطر، السماء، الأشجار، كل أنواع الظلال المختلفة، كل الأشياء التي وهبنا إياها الله».

إضافة إلى الجانب الاجتماعي، ليس غريباً على صديقات من اعتنقن الإسلام أن يكون لديهن هواجس أخرى أيضاً. بالمحصلة، كن قد اختبرن الحلو والمر معاً، اشتركن في تسريحات الشعر نفسها، والقيام بأعمال طائشة ووضع تبرّج متكلّف. إنها الفتاة التي نامت في منزلهن، وتسللن معها خارجه، وكذبن على أهلهن للتغطية على أفعالها، ورافقنها إلى النوادي الليلية حيث رقصن حتى آخر الليل، وارتدين معها أحذية عالية الكعب كن قد اقترضنها. إنها مسلمة، إنها تستر نفسها، إنها لا تشرب، لا تلفظ فاحش القول، وليست مهتمة بالرجال، هل يمكن أن تكون قد تغيرت إلى ذلك الحد؟ وما هو، أو ما الذي، قد تغيرت إليه؟

> بعد أن بدأت أستر نفسي، قضيت بعض الوقت مع صديقة في الرياضة من الجوار. كنا نتبادل أطراف الحديث عندما قالت فجأة: «أنتِ كما كنت! تقولين الدعابات نفسها وكل شيء!». كانت مندهشة حقاً» سارة.

كونكِ خائفةً، أو حتى تتخيلين، ازدراء صديقاتك لك أمر مخزٍ. لكن كيف تقنعين صديقة قديمة لكِ بروعة طريقتك الجديدة وجمالها في العيش

عندمـا تنظر إليك بشـفقة وربما تفكر، فتاة مسـكينة، انظرن إليها. لماذا كان عليها فعل ذلك وخسارة نفسها بتلك الطريقة؟

«شـعرت بالإحباط فعلاً بشـأن ذلك، خاصـةً عندما كنت أشـاهد أشخاصـاً من المنطقة التي نشـأت بها. كانوا ينظرون إلي من أعلى رأسـي إلى أخمص قدمي ويقولون: «ماذا، أنت؟ أصـبحت مسلمة، أنت؟» زبيدة.

لن أنسـى أبداً الإحراج الذي شـعرت به عندما التقيت صديقة قديمة من المدرسـة في صـبيحة يوم مشمس في محطة شرق لندن لقطار الأنفاق. كنت أنا وإياها صديقتي حفلات في المدرسة، ولم أكن قد رأيتها منذ سنتنا الجامعية الأولى. بالنسـبة لها، كانت رؤيتها لي للمرة الأولى منذ سـنوات أضـع حجاباً أسـود وأرتدي عبـاءة مع وجهي الخالي مـن التبرج الكثيف، والتعب بادٍ على وجهي من النهوض باكراً، شـيئاً أكثر مما يمكنني تحمّله. لم أكـن أريـد لذلك أن يصـل إلى «بـرق الأدغال» وأن يسـمع أصـدقائي القدامى في زيمبابوي كيف أصـبحت حالتي مزرية أفتقر للأناقة ومختلفة جـداً عن الفتـاة التي كانوا يعرفونهـا. كان يمكن أن يكـون ذلك نابعاً من شـعوري الخاص بعدم الأمان، لكني كرهت لقاء أي شـخص من الجاهلية لوقت طويل بعد ذلك. وبرغم أنكِ تعرفين أن ما تقومين به هو الصواب وما تؤمنين به هو الحق، إلا أن الشعور بأنني موضع ازدراء وسخرية كان لاذعاً بشـكل لا مثيل له. لم يكن هناك طريقة أسـتطيع من خلالها الوصـول إلى كل الذين يعرفونني وأن أشرح لهم كيف أو لماذا شعرت بأنني أحب اعتناق الإسـلام، لهذا تراجعت بشكل ما. شـعرت بأقصى درجات الراحة عندما كنت أوجد حول أولئك الذين لا يحتاجون إلى تفسيرات ـ أو تبريرات.

أخبرتني كلير كيف انسحبت تدريجياً من صديقاتها، خائفة من انتقاداتهن وغير واثقة من قدرتها على الارتقاء إلى مستوى شهادتها.

قالت: «لم أتكلم حقاً مع صديقاتي عن المكان الذي كنت أجيء منه. يعود سبب ذلك جزئياً إلى أنني كنت أعرف أنهن سيعتقدن أنني أصبحت مسلمة بسبب غاريث، لأنه كان الشخص الذي يخبرني عن الإسلام. كان صعباً بما يكفي بالنسبة لي أن أتكلم عن ذلك دون أن أشرح للآخرين أنه، نعم، يعود ذلك في جزء منه له، لكنه لم ولن يكون أبداً بسببه وحده. كنت خائفة من رأيهن بي، وكنت خائفة من تثبيت ذلك الخلاف مع الجميع، تحسباً فقط من عدم وصولي إلى المستوى المنشود بنفسي. شككت بقدرتي على اعتناق أشياء معينة. أصبحت بعيدة تماماً عن كل صديقاتي. لم أخبرهن حقاً الكثير عن الأمر؛ لأنني شعرت بأن ذلك هو السبيل الذي أريد سلوكه. لم أفكّر حقاً أنني أستطيع القيام بذلك بأي طريقة أخرى».

مجال آخر للنزاع بالنسبة لي والعديد من الأخوات اللواتي تكلمت معهن كان «الاختلاط»، وهو التعبير الذي غالباً ما يستعمله المسلمون لوصف الوضع الذي يختلط فيه رجال ونساء، ليسوا محارم، اجتماعياً. ضمن وحدة العائلة، العلاقات مباحة بين الرجال والنساء الذين يكونون إما متزوجين أو بينهم صلات قربى ولا يستطيعون الزواج. تلك العلاقات موضّحة في القرآن في سورة النساء:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ

اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 23].

على العكس، هذا يعني أن المرأة المسلمة ليست ملزمة بارتداء اللباس الشرعي أو وضع الحجاب بحضور والدها، وأبنائها، وأشقائها، وأعمامها وأخوالها ... إلخ. يمكنها ارتداء ملابسها العادية، وضع التبرج والعطور والدخول في أحاديث ودّية مع هؤلاء الرجال الذين يُدعون المحارم.

على أي حال، العلاقات بين الرجال والنساء غير المحارم محكومة بشريعة أخلاقية تتضمن وضع الحجاب، وغض البصر (لكل من الرجال والنساء، برغم أن الرجال مطالبون بها أولاً في القرآن)، عدم خلوة رجل وامرأة معاً وحدهما، الامتناع عن أي تماس جسدي والتصرف عامةً بأسلوب حضاري محترم عندما يكون هناك تواصل. في حياتنا، يحدث هذا غالباً في سياق التعاملات التجارية، والدراسة والتسوق من ضمن أشياء أخرى. على أي حال، نبذل جهوداً كبيرة لإبقاء هذا التواصل في أدنى درجاته. يجد الكثير من غير المسلمين وحتى بعض المسلمين فكرة الفصل بين الجنسين غير طبيعية ولا يستطيعون فهمها.

عند هذه النقطة، ربما يكون مفيداً أن نتذكر أننا، بوصفنا مسلمات، نعيش وفقاً لشريعة أخلاقية مختلفة عن المجتمع الذي نحيا فيه. إنها الأخلاقيات المذكورة في القرآن التي يتعامل جزء منها مع مسألة خطيرة هي الزنا. بالنسبة للمسلمين الملتزمين، يعدّ هذا شيئاً شائناً بشكل فظيع وينبغي تفاديه مهما كلف الأمر.

أريد منكم الآن تخيل هذا السيناريو: مجموعة من الأصدقاء، رجال ونساء، يخرجون في ليلة ما معاً. ترتدي النساء ملابس مثيرة، وينتعلن أحذيتهن المخصصة للرقص. يتم تقديم الكحول ويتباهى كل الرجال بشرب كميات كبيرة منه، متلهفين لترك انطباع جيد. عندما يلتقون، يتم تبادل المعانقات والقُبل. ربما يدوم عناق بين صديقين أكثر مما هو معتاد بقليل هل هي نعومة شعرها أم العطر الذي يضعه؟ لكن ذلك لا يعني شيئاً؛ لأنهم مجرد أصدقاء. إضافة إلى ذلك، كلاهما متزوج منذ مدة طويلة ويحب ويحترم شريكه كثيراً. ينعش المزاح اللطيف مزاج الجميع ويكون هناك انجذاب بينهم. تقوم إحدى النساء، المفعمة بالحيوية والظُرف، بما يمليه عليها الرجال الآخرون. يحب الرجال ذلك، خاصةً صديقها الصالح، إنه يحب أن يتبادل معها أطراف الحديث فحسب: إنها تمثّل تحدياً كبيراً بالنسبة له، بخلاف شريكته التي لا تبدو مثيرة للاهتمام مقارنة بها. يبقى أخيراً كلاهما، يتناقشان وحدهما.

يراقب كل شخص آخر حديثهما فيما الشرر يتطاير. تغوص صديقته في مقعدها، محرجة وخجلة؛ لأنها لم تستطع لفت انتباهه بتلك الطريقة. يشعر صديقها بعدم كفاءته، لم تظهر تلك الشرارة في عينيها أبداً عندما كانا يتبادلان أطراف الحديث. وهكذا تستمر الأمسية، الجميع يرقص مع الجميع، وتعصف الكحول بالعقول وتسيطر الغرائز. ما الذي سيحدث في نهاية الأمسية؟ هل ستبكي صديقته في السيارة في طريق العودة إلى المنزل غاضبة؛ لأنه تجاهلها من أجل امرأة أخرى، لا حول لها في مواجهة إنكاره للأمر؟ هل سيدعوها صديقها «الغانية الصغيرة» ويصفعها على وجهها غاضباً منها؛ لأنها جعلته يبدو أضحوكة؟ أو ربما لن يحدث شيء، لا شيء غير اعتيادي. ربما ستكون مجرد أمسية عادية. أو ربما لا تكون.

هذا مجرد سيناريو واحد، وقد يبدو للكثيرين أنه ليس أكثر من تفاعل طبيعي ودّي بين الجنسين. على أي حال، في أحيان كثيرة، يتم زرع بذور الشهوة حيث يوجد رجال ونساء. تموت بعض البذور قبل أن ينتج عنها جذور، وينتج عن أخرى براعم قبل أن تختفي أيضاً؛ وتنمو أخرى إلى أزهار كاملة.

تعرف وسائل الإعلام هذا الأمر جيداً أيضاً. في عدد لا يحصى من الأفلام، والروايات، والأغاني والقصائد، يتم استكشاف واستغلال موضوع الزنا. أعتقد أنه سيكون عادلاً القول: إن لغة الزنا وصورته جزء من مجتمعنا، سواءٌ أحببنا ذلك أم لا، ووسائل الإعلام واسعة الانتشار لا تدينها ولا تحذّر منها أيضاً. بدلاً من ذلك، تتباهى بالفعل والأشخاص الذين يقعون فيه: رجل السيدات، محطم القلوب، دون جوان، مغوي النساء، من هم بالمحصلة سوى سلسلة من الزناة. لأكون فظّة؟ حقيقة أنه لا يوجد ذلك العدد من تعبيرات الإعجاب الخاصة بالنساء اللواتي يقمن علاقات جنسية مع شركاء متعددين تدل على الطريقة التي يعمل بها مجتمعنا، حتى في هذه الحقبة من المساواة بين الجنسين.

على أي حال، بالنسبة للمسلمين، لا يحظى الزنا بصورة زاهية على الإطلاق: إنه من الكبائر وينبغي تفادي أو تقييد أي شيء ربما يقود إليه، وهذا يتضمن «الاختلاط».

لكن كيف يمكن لمسلمة حديثاً، كانت تختلط بالجنس الآخر طيلة حياتها، أن تتأقلم مع هذا الانفصال عن حبيبها القديم وأصدقائها الذكور؟ مسألة «الاختلاط» لم تكن صعبة بوجه خاص بالنسبة لي، ليس لأنه لم يكن هناك

شباب مقرّبون لي، لكن لأنني أقدّر السبب الكامن وراء ذلك. كنت قد رأيت بنفسي عواقب تلك البيئات المختلطة، وشهدت الألم الذي مرّت به صديقة نتيجة خيانة أفضل أصدقائها، والاضطراب الذي تسببه بيانات الحب الأفلاطونية المفاجئة غير المرحّب بها من قبل الأصدقاء. لهذا كنت أقدّر سلامة البقاء بعيداً عن تلك الأوضاع مجتمعة.

على أي حال، لم تجد أي امرأة أخرى الأمر بتلك السهولة.

قالت لي ياسمين: «كان الأمر صعباً؛ لأن معظم أصدقائي كانوا ذكوراً. بدأت بعد مدة من الوقت أبتعد عنهم وكانوا ما زالوا يحاولون التشبث بي، وكان ذلك صعباً مع أولئك الذين كانوا مقرّبين لي. مع الصديقات، كنت سعيدة للتخلص منهم!».

وجدت سعاد، المولودة لعائلة صومالية مسلمة، الالتزام صعباً جداً فيما يخص الاختلاط وضغوط العائلة. عبّرت عن ذلك أمامي عندما قالت: «كان صعباً القول لكل أصدقائي الشباب المسلمين: «آه، لا يمكنني التحدث معكم بعد الآن، هذا حرام، لا يمكنني القيام بذلك». وانقطعت عن الجميع، ذكوراً وإناثاً، أي شخص كنت أعتقد أنه سيؤثر علي بالتأكيد. لم أتكلم معهم هاتفياً بعد ذلك، وانقطعت تماماً عنهم. لكني لم أستطع الانقطاع عن شقيقتي، الشقيقة التي عاشت في المنزل نفسه مثلي، والتي كانت تقول باستمرار: «أنتِ متشددة للغاية. لا أفهم سبب قيامك بذلك». كنت أستطيع صد أولئك الذين لم يكونوا من العائلة، لكن عندما تكون شقيقتك وأبناء عمومتك الذين يكونون في حالتك مثل الصقور، لا يمكنك الابتعاد عنهم قيد أنملة».

كان على أخوات أخريات التعامل مع أحباب أو شركاء غير مسلمين عندما دخلن في الدين. كان بعضهم أحباباً من المدرسة الثانوية، وبقي آخرون متزوجين لسنوات عديدة، لكن اعتناق الإسلام كان يعني اتخاذ قرارات بالغة الصعوبة. لا تستطيع النساء المسلمات الزواج سوى من رجال مسلمين كما يقول القرآن:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: 10].

لأنهن لم يرغبن «بالعيش في الخطيئة»، كان هذا الحكم يعني أن على النساء الاختيار بين شركائهن وإسلامهن، كان ذلك خياراً بسيطاً برغم صعوبته: ينبغي أن يحل الدين أولاً.

ربما يبدو هذا خياراً مستحيلاً، خاصةً إذا كانت العلاقة موضع البحث جيدة. لكن هناك طريقة لفهمها: تخيلي أن تكوني مدمنة على الكحول أو لفائف التبغ، وقرّرت الإقلاع عن ذلك. من ناحية أخرى، يشرب شريكك كثيراً أو يدخّن بشراهة. هل تستطيعين تخيل صعوبة أن تنأى بنفسك عن أسلوب حياة ما زال يتدفق في عروقك، وما زال يناديك ويتشبث بك؟ فيما الشخص الذي تحبينه وتعيشين معه ما زال يعيش وفقاً لأسلوب الحياة ذاك وكل ذلك يحدث فيها، سيكون شبه مستحيل عليك الإقلاع عن ذلك والمحافظة على علاقتك في الوقت نفسه. هذا ما يحدث مع الإسلام. كونكِ مسلمة حديثاً، ترغبين بأن تعيشي الحياة الإسلامية، من اللحظة التي تستيقظين بها لتصلي الفجر إلى اللحظة التي تذهبين فيها إلى السرير

في الليـل. لكن وجود شـريك غير مسـلم يعني مواجهتك لأسـلوب حياتك القديم يومياً وتعرّضـكِ لكل اختباراته وتجاربه، فتنه، مثل اللغة السـيئة، الاختلاط، تناول الشـراب، تعاطي الممنوعات أو حتى شـمّ رائحة شطيرة لحم الخنزير. لهذا، في مواجهة هذا التناقض الصـارخ، تنفصـل الكثير من النسـاء عن شركائهن. سـألت أمَّ صفوان كيف اسـتطاعت أن تتحمل عدم رؤية حبيبها الذي رافقته طيلة خمس سنوات.

كان جوابها: «منحني الله القوة، هذا كل ما يمكنني قوله! شعرت بأنني لا أسـتطيع الوجود مع كافر بعد ذلك. كان الأمر كما لو أنني أتسـاءل: ما الفائـدة من دخولي الدين؟ ربما أسـتمر في القيام بما كنـت أقوم به من قبل والتفكير بأنني مسـلمة، أضحك على نفسي فحسب». في حالتها، كان لدى حبيبها فضـول كبير بشأن دينها الذي سرق، في الواقع، حبيبته منه، ولهذا ذهب إلى المسـجد لاكتشـاف ماهية الأمر كله. أصبح لاحقاً مسلماً أيضـاً، وكذلك شـقيقته ووالدته، وهو متزوج الآن من أم صفوان ولديهما أربعة أطفال.

## مظهر جديد

اقتباساً من الأخوات اللواتي تمت مقابلتهن من أجل هذا الكتاب وبناءً علـى تجربتي الخاصـة، يبقى الحجاب، دون شـك، أحد أصـعب مظاهر الإسـلام للمسـلمة حديثـاً. إنه يسـتلزم التدقيق في أشـياء كثـيرة جداً: الطريقـة التي ترين بها نفسـكِ، الطريقة التي يراك بهـا الآخرون وكيف يعاملونكِ نتيجةً لذلك. بالنسبة لبعضهم بمن فيهن أنا، كان الحجاب شيئاً جاء بشكل طبيعي للغاية، برغم أنني بدأت بوضع وشاحٍ للرأس ومضيت في

طريقي حتى غطّيت نفسي بشكل كامل. كانت أخريات يعوّدن أنفسهن في البداية بارتداء قبعة، منديل كبير أو، كما في حالة حليمة، شبكة للشعر: «كان الفصل شتاءً وبدأت أضع شبكة للشعر، هل تتذكرن الشبكة؟ لكني فكّرت بعدها، لا بأس، يصبح الجو أكثر دفئاً الآن، لا يمكنني وضع الشبكة طيلة الوقت! وهكذا ابتعت وشاحاً من كوفينت غاردن وبدأت ألفّه حول رأسي ... وبقيت على تلك الحال وقتاً طويلاً. ثم وصلت إلى مرحلة قلت فيها، لا بأس، يمكنني القيام بذلك الآن».

كان لياسمين تجربتها الخاصة في تغطية نفسها: «كانت تغطية رأسي تمثّل تحدّياً بالنسبة لي. تغطية الجسد! مهلاً، ليس أمراً مهماً. تغطية الشعر ياه! اعتدت دفع مبلغ كبير لتصفيف شعري! عندها، كان 40 جنيهاً مبلغاً كبيراً لعمل تسريحة لشعرك وتصفيفه وكنت أدفع ذلك المبلغ، وكنت أريد أن يشاهد الناس ذلك الشعر! استغرق بي الأمر نحو ستة شهور لاعتمار القبعة. لهذا انتقلت من القبعة إلى الحجاب».

هناك مقدار معين من تجنّب الظهور الذي ينبغي أن يحدث عند وضع الحجاب. الإسلام دين السلام والخضوع للخالق، وهذا التواضع شيء ينبغي أن يظهر على جسد المؤمن. جزء من هدف الحجاب هو منع المؤمنات من عرض أنفسهن، ملابسهن، أجسادهن، ولهذا السبب بالذات يكون الأمر صعباً على من اعتنقن الإسلام اللواتي، مثل عالية، كن يتبعن الأزياء والظهور بـ «مظهر حسن». كما قالت لي صراحة: «أعتقد أنني وجدت الحجاب صعباً حقاً؛ لأنني أحببت ملابسي دائماً! يعود ذلك جزئياً إلى أنني كنت آتي إلى المسجد ثم أعود إلى عائلتي غير المسلمة وأشعر بالخجل قليلاً من الحجاب. عندما وضعته، كنت أشعر بالحرّ الشديد

دائمـاً، حتى في أيام البرد القارس، كما لـو أن الجميع كانوا ينظرون إلي. ثم انتهى بي الأمر أخيراً بأن أحببته. لكن ذلك لم يحصـل مباشرة، وإنما استغرق بعض الوقت».

هكـذا، بالنسـبة للكثير مـن الأخـوات، كان الحجاب يمثـل تحدّياً! أنا نفسـي وجدته بشـعاً عندما رأيته أول مرة قبل سـنوات طويلة في مصـر. لكن بعد أن جرّبته فعلاً، شـعرت أنني أسـتطيع التعايش معه، وفي النهاية، شعرت بالفخر حقاً لارتدائه. كانت الأثواب الخارجية الأخرى، مثل العباءة والجلبـاب قصـة مختلفة تماماً! كان لدى ياسـمين الكثير مما تقوله حول الأثواب والمعاطف التي كان ينبغي ارتداؤها فوق الملابس.

«أنا آسـفة، لكني كنت أعتقد أن العباءة بشـعة للغاية. فكّرت فقط، آه يا إلهي، سـأبدو مثل جدّة تركية صغيرة! آه لا، لا يمكنني فعل ذلك! أرتدي ملابس محتشمة، وثيابي فضفاضة، لا يمكنكِ رؤية شكل جسدي، كل هذا الهراء. كانت تلك قضية شـائكة. لكن عندما بدأت قراءة ودراسة المزيد، أدركـت أن ذلـك أقل ما يمكنني فعله في نهاية الأمـر. لقد هداني الله إلى الإسـلام، وكان ذلك شـيئاً مهماً بالنسـبة لي. لم أكن لأكشـف جسدي في المقام الأول لهذا لم أرَ سـبباً يجعل من ارتداء لباس يستر الجسد للخروج من المنزل قضـية شائكة. إن كنتِ تشعرين بالبرد، فسترتدين معطفاً عند الخـروج مـن المنزل، لهذا لمـاذا لا يمكنـكِ، في كل مرة تخرجـين بها من المنزل، ارتداء معطفكِ؟».

ينبغـي أن نؤكـد جميعنـا بأن العباءة كانت زياً شـائعاً قبـل خمس إلى عشـر سنوات مضـت، وتمثلت في فسـتان عريض مع بطانة عند الكتفين،

ردنان ضيقان، وأزرار ذهبية كبيرة من الأمام. كانت حقاً الأثواب الوحيدة المتوافرة في المحال الإسلامية في كل أنحاء شرق لندن، وكنت أكرهها. بين نوبات الضحك، أوضحت كلير مشاعرها تجاه تلك العباءات: «ياه، إنها بشعة! ترتدينها وتحاولين فعلاً، تحاولين مقاومة رغباتكِ والتحلّي بالورع وتقولين: «لا، هذا ليس سيئاً كما تخيلت»، لكنه في الواقع أسوأ، لهذا الشيء طبقتان أسفل ما يظهر منه هذا مثل ثوب حمل غير مناسب!».

أقسمت إنني لن أرتدي واحدة من تلك العباءات أبداً، ولحسن الحظ، في الوقت الذي أصبحت فيه مستعدة لارتداء ثوب خارجي، كنا قد وجدنا أختاً رائعة من برادفورد تقوم بخياطة عباءات أنيقة انسيابية تبدو مثل فساتين عريضة فضفاضة، ودون بطانة مرئية عند الكتفين. كانت رؤية عباءاتها، التي كنا ندعوها جلابيب حينها، هو ما أقنعني أنه بمقدوري تغطية نفسي أكثر دون أن يبدو شكلي رثاً. لم أكن أشعر بالحاجة لأن أبدو أنيقة، مرتبة (ونصف محتشمة!) وأن أدخل في نزاع مهما كان صغيراً مع إيماني.

بالنسبة لبعض الأخوات اللواتي تكلمت معهن، كان الحجاب أمراً غريباً تماماً بكل بساطة لما كن عليه في ذلك الوقت، والحال التي كن عليها. كما شرحت حليمة لي: «كان الأمر مناقضاً تماماً لما أفعله، لشخصيتي وأسلوب حياتي. كنت في الجامعة، في السنة الثانية، وأكتشف نفسي للتو. كنت قد انتقلت بعيداً عن عائلتي، وأتصرف على سجيتي لهذا كانت مسألة التغطية مناقضة لما كنت عليه. ما شاء الله، بدأت بغطاء الرأس ثم الجسد بأكمله. كان الناس يرونني في المجتمع كما يرونني في الجامعة. تقول بعض الأخوات: «تجمّعنا عند زاوية المسجد وارتدينا كلَّ شيء». حسناً، لا يمكنني فعل ذلك، وهذا نفاق بالنسبة لي، ترونني كما أنا».

تعترف كلير، فتاة رايوت غرل السابقة، بأن « الحجاب كان صعباً جداً، ومؤلماً بالتأكيد بالنسبة لي. اعتقدت أنني إذا قابلت شخصاً ما، مستشاراً بارعاً حقاً، فسوف يساعدني ذلك. لكن لسوء الحظ، لم أفعل. لهذا ترددت لوقت طويل. عندما بدأت ارتداء حجابي، كانت تلك مرحلة في غاية التقدم: جينز فضفاض، وشاح صغير، شيئاً فشيئاً، والآن، أحب حجابي!».

أدركت في ذلك الوقت شيئاً مهماً: مجتمعنا يعلّمنا أن نكون مهووسين بالمظاهر. طالما بقي الشخص جميلاً، رشيقاً، ثرياً، يحب الدعابة أو موهوباً، نكون سعداء لقبوله أو قبولها كما يبدو. لا يتم تعليمنا أبداً أن نبحث ـ أو نهتم بشأن ـ عمّا يقع تحت السطح. لهذا، قد تندب أمينة سر صديقتي موت الفتاة الممتلئة حيوية التي كانت تعرفها دون أن تفكّر حتى بشأن عدم الاستقرار، والغرور، والغطرسة والاضطراب الذي كان أيضاً جزءاً من تلك الفتاة. تبدو هذه النظرة السطحية المضللة أكثر بروزاً بهوس المجتمع بالمشاهير. ليس مهماً الزهو بالنفس، وتضخم الأنا، والخيلاء، والجشع، والسطحية التي قد يكون عليها الشخص «الشهير»، وليس مهماً أن معظم ما نراه ليس أكثر من مجرد علاقات عامة بارعة وصور زائفة بعيدة عن الكمال يتم نشرها لتحسين مركز أهل الشهرة. طالما أنهم يبدون جميلين ويبتسمون لآلات التصوير، يكون كل شيء بخير والجمهور راضياً. ونحن نهدر وقتنا، نستغرق في أحلام اليقظة، نقرأ حول كل التجهيزات، والجوائز والهدايا الباهظة الثمن التي يتبادلها هؤلاء «الأشخاص الجميلون»، بينما يضحكون بصوت خافت حول أيامهم السيئة، حالات طلاقهم، جرعات الممنوعات المفرطة التي يتناولونها وكل دليل آخر يثبت لنا أنهم «مجرد بشر بالمحصلة». ربما لا يستحقون تخصيص مساحة خاصة بهم، لكنهم

علـى الأقـل يجمّلون تلك المسـاحة! وفي هذا النطاق، لا يمكن للمسـلمة أن تنافسـهم: بغض النظر عن مـدى ذكائهـا، موهبتها، لطفهـا، كرمها أو صدقها، فإنها لا «تبدو كما ينبغي»، وهذا شيء لن يغفروه لها أبداً.

اكتشـفت سعاد أنها عندما بدأت الالتزام، بدأ وزنها يزداد: «كان ذلك نتيجة لتغير أسـلوب حياتي وعدم الشـعور بالحاجة لارتداء أجمل الملابس آنـذاك. لم يكن هناك صـورة ينبغي الحفاظ عليها بعـد ذلك». لم تدعها عائلتها تنسـى ذلك: «اعتادت عائلتي القول: «منذ بـدأت الالتزام، تركت نفسـها على سـجيتها. لم تكـن العباءة مناسـبة لها، وكانت هي مناسـبة لهـا ...». كل هذا له تأثير سـلبي جداً على تقديرها لذاتها وجعلها تشـعر بالامتعاض نحو حجابها وعباءتها.

لكن بالنسـبة لبعضهن، الحجاب ليس مشكلة بحد ذاته، إنما لأنه رمز لهوية معينة، هويةً واجهن مشكلة في التوافق معها. بعد أن عدت من غينيا، بقيت أرتدي وشـاح الرأس طيلة سـتة شـهور، شـعرت بالراحـة فيه: كان يغطي شـعري، ويبدو جميلاً (وكان ذلك ما يزال مهماً بالنسبة لي!)، ولم يكن «متشـدداً» كثيراً، ويتناسب مع هويتي الأفريقية. تخيلوا المفاجأة التي أصابتني عندما بدأت أخواتي اللواتي كنت أراهن غالباً في المصلّى يسألنني متى سأبدأ ارتداء «حجاب مناسب»؟. شعرت، بكل صراحة، بالإهانة. من قال: إن رؤيتهن عن الحجاب أفضـل مـن رؤيتي؟ لهذا أعلنت بكل فخر أن تلـك هي الطريقة التي نرتدي بها الحجاب في أفريقية، وأنني لن أفعل أي شـيء غير ذلك. ابتسمت الأخوات حينها بشـكل يثير الريبة، غير واثقات مما يمكنهن فعله بشـأن قوميتي السوداء التي كانت تستحوذ عليّ عندها. لكن بالنسـبة لي، كان الحجـاب الذي يغطي ما يأمـر الله بتغطيته غريباً جداً، خارجاً عن المألوف تماماً، ليس أفريقياً أبداً. لم يكن يناسبني.

شعرت كلير بالشيء نفسه: «لم أكن أريد ارتداء الحجاب ولم أرتدِ الحجاب وقتاً طويلاً، وحاولت إرغام نفسي على البقاء كما كنت من قبل، لكن روحي لم تكن سعيدة بذلك. لكن في الوقت نفسه، لم أستطع الاندماج كلياً في شيء آخر».

قضية الهوية معقدة. كانت «الأنا القديمة» كينونة آمنة معروفة، وكنت مرتاحة معها. كنت أتغير آنذاك وجزء مني يقاوم ذلك التغيير. دخلت في صراع مع نفسي، وتمزّقت بين ما أعرف أنه صحيح وما تدعوني رغباتي للقيام به. لم يكن ذلك شيئاً يحدث كل يوم، لعلمكم، فقد كانت معظم الأيام جيدة. لكن كانت هناك أيام سيئة، أيام بدا فيها كل شيء أكثر مما يمكن احتماله، كما لو أن الشيء المثالي الذي كنت أسعى إليه كان صعباً جداً وبعيداً عن متناول يدي.

الأبيات الآتية من الشعر دليل جيد على مشاعري المتناقضة في ذلك الوقت.

«أغمر نفسي بياردات وياردات من وشاح الرأس
أحاول إخفاء ألمي في الظلام.
لا أعرف متى بدأت مشاعر الخواء هذه تنتابني.
ينبغي أن أعترف
بأنه خلال العيد
بدأت مشاعر البهجة تتراجع.
وأجد نفسي الآن أبكي، متشحة بالسواد

أتضرع لاستعادة بعض مما كان لدي.
انسوا ما يقوله العلم، العالم مسطح!
يمكنني رؤيته يمتد أميالاً وأميالاً
من اللون الرمادي وغياب قاسٍ للابتسامات.
حتى عندما أكتب، وجهي جامد
أضحى صعباً مدّ هاتين الشفتين هذه الأيام.
هل هذه، بأي طريقة، جحيم اصطنعتها بنفسي؟
هل خطئي أنني لم أنتهِ من خبز نظرياتي؟
أنني لم أضبط المؤقت للسماح لروحي بالشفاء؟
أنني دفعت نفسي بقسوة كبيرة نحو شيء مثالي مستحيل؟
هذه بصراحة المشاعر التي تنتابني
وحتى معطفي البنفسجي اللامع
لا يجعل اللمعان
حقيقة».

لحسن الحظ، كانت الأوقات التي شعرت بها بالإحباط قليلة ومتباعدة؛ لأنني كنت محظوظة في اعتناق الدين مع سارة، وحنّا ومجموعتنا المقرّبة من المسلمات حديثاً والعائدات إلى الدين. كان ذلك يعني أن لدينا جميعاً قضايا متشابهة تتعلق بما ينتظرنا أمامنا وما تركناه خلفنا. لهذا، على العموم، كان لدينا دعم كبير. لم يكن لدى أخوات أخريات، على أي حال، مثل شبكة الدعم تلك. كانت بعضهن الوحيدات اللواتي عدن إلى الإيمان

في مجموعة مسلمين بالولادة، مسلمين لم يفهموا آلام حب قديم، النقر على الوتر الحسّاس وإغراءات الصيف. بالنسبة لهن، كان كفاح التكيّف مع هذه الطريقة الجديدة في الحياة سراً احتفظن به لأنفسهن. بالنسبة لأخوات أخريات، كانت سرعة التغيير كبيرة جداً: كان هناك الكثير مما ينبغي التخلّي عنه بسرعة كبيرة، والكثير مما ينبغي تطبيقه خلال وقت قصير. كان ذلك هو الموقف الذي وجدت حليمة نفسها فيه.

«عندما دخلت الدين، رأيت كيف تمارس أخوات أخريات الشعائر، وشعرت منذ البداية بأنني أتعرض للكثير من الضغوط. شعرت بأنني لست على ما يرام، لأن كل شيء في تلك الأيام كان يدور حول «لا يمكنك القيام بهذا»، «لا يمكنك القيام بذلك»، «تخلصي من كل ملابسك» ... إلخ. لهذا منذ البداية، شعرت بذلك الضغط وكدت أتراجع؛ لأنني فكّرت في قرارة نفسي أنني لا أشكك بالدين لكني أشكك ما إذا كنت أستطيع الالتزام به، وكان ذلك بعد ثلاثة شهور فقط من اعتناقي الإسلام. ثم قالت إحداهن: «لماذا تفعلين ذلك؟ لست مضطرة لذلك». وقلت لنفسي: إنني سأفعل ذلك بأسلوبي. وفعلت ذلك كله ... كان علي إيجاد طريقة خاصة بي».

## عقيدة جديدة

الإسلام دين، وطريقة حياة، لأنه بالتحديد أكثر من مجرد دين. لهذا السبب يتضمن نظاماً عقديّاً واجتماعياً، واقتصادياً وسياسياً كاملاً. لكن إلى جانب كل التغييرات التي طالت نمط حياتنا عندما اعتنقت أنا وصديقاتي الإسلام، كان هناك أيضاً ثورة طالت نظام معتقداتنا الذي كان ينبغي التفكير به مليّاً. بالنسبة لكثيرات ممن كن متدينات من قبل، كانت

تلك مجرد قفزة صغيرة نحو التوحيد، الإيمان بالوحدانية في الإسلام. بالنسبة لأخريات، مثلي، بدا الأمر مثل القفز إلى القمر. بعد أن ضحكت ولهوت في أثناء حضوري صفوف تعليمي الديني في المدرسة بمرور السنين، كان عليّ أن أتكيّف فجأة مع فكرة أن الأنبياء عاشوا فعلاً، وأن القرآن وحي إلهي وكامل، وأنه تم توثيق أحاديث النبي محمد ﷺ وينبغي الالتزام بها.

أتذكر أنني وجدت صعوبة بالغة في قبول فكرة الغيب، غير المرئي، بأكملها على وجه الخصوص، ولم أفكّر، لوقت طويل، بشأن الجنّة والنار، والملائكة أو الجن. بدت قفزة الإيمان تلك بعيدة جداً بالنسبة لي في ذلك الوقت. نظراً لترعرعي في بيئة غير دينية، وجدت أن فكرة مسؤولية الشخص عن أعماله والاستجابة للرب مهيبة تماماً. استطعت من خلال زيادة معرفتي بالبراهين الفكرية والعلمية للقرآن والسنّة أن أثق، بشكل منطقي، بأن عالم الغيب للأرواح والملائكة حقيقة. يمثّل القرآن، كما قال أحد العلماء في الماضي، البشرية مع براهين منطقية على صدقه وموثوقيته، ويستطيع القارئ، بناء على تلك البراهين، قبول تلك الأشياء التي لا يمكن إثباتها. هكذا كان الأمر بالنسبة لي.

لكن حتى ذلك الوقت كان أكبر اختبار لي وللكثير من الأخوات قبول جوهر الإسلام (الخضوع). أن تكوني مسلمة معناه أن تخضعي لمشيئة الله. هذا يعني التخلي عن الأنا، والتكبّر، والغرور، وإرغام النفس على الطاعة.

كان طريق سارة الطويلة إلى ما أصبحت عليه الآن مليئة بالمقاومة: «كنت أقاوم الخضوع الكامل. كنت سعيدة بالطريقة التي أعيش بها حياتي، لطالما كنت نشيطة، ممتلئة حيوية، أحب الخروج، مشاهدة أفلام بيوت

الفن، زيارة المعارض، الذهاب إلى مطاعم راقية، وكنت أحب ملابسي ... وكان ذلك في معظمه ما أراده والدي لي - أن أكون خبيرة بالحياة، أتكلم لغات مختلفة، أحصل على تعليم جيد، وأتفوق في مجالي - ولأني كنت أحبه وأحترمه، أردت الارتقاء إلى مستوى توقعاته».

بعد قضاء حياتنا كلها نثور ضد سلطة أو شيء ما، اخترنا الخضوع للسلطة الأعلى على الإطلاق - الله - وكان ذلك مؤلماً أحياناً. كيف يمكن شرح الصراع العنيف الذي ينتابك عندما تتوقين بشدة إلى شيء يؤلم، برغم أنكِ تعرفين أنه ليس مسموحاً وممنوعاً لأسباب وجيهة؟ يقول الله تعالى:

**﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾** [البقرة: 216].

على الرغم من أن هذه الآية تتكلم عن الجهاد الجسدي الذي أُمر به النبي ﷺ وصحابته - رضي الله عنهم - ، إلا أنه يصح أيضاً على جهاد النفس، أي الصراع مع الذات والرغبات. هذه أول معركة ينبغي أن يشنّها الجميع، المعركة التي يكافح فيها المرء ضد غرائزه وشهواته من أجل شيء أسمى، أصفى وأنقى. لم يقل أحد: إن المعركة ستكون سريعة أو إن الفوز بها سيكون سهلاً، لكنها معركة نواجهها جميعنا. لقد دخلت في كفاح مع نفسي حينها وما زلت كذلك حتى الآن، في كل يوم من حياتي، وسوف أتابع -إن شاء الله - الكفاح حتى أموت.

بالنسبة لكل من يأتي إلى الإسلام من حياة الجاهلية، سواء أكان معتنقاً أم عائداً إليه، فهناك لحظات مؤلمة وتضحيات ينبغي القيام بها.

لكن في قلوبنا جميعاً ذكرى أولئك الذين سمعوا رسالة النبي ﷺ واعتنقوا الإسلام أولاً. نتيجة إيمانهم برب واحد في أرض تحكمها عبادة الأوثان والقوانين القبلية التي تبجّل الأسلاف، تم تجريد المسلمين من أموالهم، إخراجهم من منازلهم، ضربهم، تعذيبهم وقتلهم، لكنهم لم يتراجعوا عن إيمانهم.

إحدى القصص التي علقت في ذهني كانت عن سميّة - رضي الله عنها-إحدى صحابيات النبي ﷺ. بعد أيام من تعذيبها على الرمال الحارقة في الصحراء العربية، لقيت حتفها على يد أبي جهل الذي أغاظه رفضها الارتداد عن الإسلام فطعنها برمح في أعضائها الحسّاسة. يعدها كل المسلمين أول شهيدة في الإسلام، وتُعد شجاعتها وقوة إيمانها مصدر إلهام لنا جميعاً.

والشيء الذي فاجأني وأثار دهشتي هو الإيمان الذي لا يتزعزع لكل واحدة من الأخوات اللواتي تكلمت معهن، واللواتي أكّدن أن الأمر كان يستحق كل الألم، الدموع والحزن الذي رافقه، لن تتراجع واحدة منهن عن النطق بالشهادة إذا عدن بالزمن إلى الوراء. إنهن مستعدات لخوض كل التجارب والمحن لتحقيق هدفهن: التشبث بدينهن، الاحتفاظ به قريباً من قلوبهن، وجعل جماله ينفذ إلى حياتهن، أجسادهن وأرواحهن والحصول من ثم على رضا مولاهن ومحبته، ورؤية جمال وجهه يوماً ما.